مقدمة وتمهيد

علم مقارنة الأديان من العلوم التي تحتاجها الإنسانية في هذا العصر مثلما كان حاجة في عصور خلت.

فاليوم تتضح معالم التجمعات البشرية وثقافتها وعقائدها، وتنكشف أمام الجميع من خلال الاتصال البشري المباشر وغير المباشر، ومن خلال الاحتكاك الإنساني الذي يجري بسبب الهجرة والدراسة والتنقل السريع وكذلك الاستيطان والتبادل السياسي والثقافي والعلمي.

فحتى لا تبقى الحواجز الجغرافية وكذلك النفسية والعقائدية والعرقية عائقاً أمام فهم الشعوب لبعضها بعضاً، كان لابد من إيجاد آليات ومناخات عديدة للتقريب بين هذه الشعوب، والتعرف على أفكارها وعقائدها.

وحتى وقت قريب ظل أبناء الشعوب يجهلون حقائق أفكار بعضهم ومعتقدات بعضهم. بل إن الكثيرين لا يعترفون بعقائد غيرهم. ويظنون أن عقائدهم هي الأصح، وهي التي ترضى عنها الأعراف وترضى عنها السماء.

فإذا كانت الثقافة المتبادلة حاجة إنسانية، فإن العقائد تفرض نفسها كي تكون إحدى سمات تلك الثقافة الكونية التي يجب أن يتسم بها العقل البشري. ولعل الجهل بهذه السمة يشكل أحد المعوقات أمام جو من التفاهم الإنساني. ولعل ذلك

أيضاً ما جعل كثيراً من سوء التفاهم يسيطر على العقول والنفوس حتى تحدث الحروب والنزاعات ومن ثم ارتهان البشر للإبادة والقتل والتشريد.

وإذا نظرنا اليوم إلى تعميم مصطلح الإرهاب على العالم الغربي نرى أن صانعي هذا الإرهاب يلصقونه بالإسلام، وحسب ظنهم أن هذا الدين يحث على الإرهاب والقتل والتخريب. وبسبب فهم خاطئ لنصوص القرآن الكريم وسنة النبي محمد ﷺ دمجوا بين الإرهاب والإسلام. والواقع أنهم لو فهموا هذا الدين فهماً صحيحاً لوجدوه دين سلام ومحبة، ويتقدم كثيراً على كل العقائد التي سيطرت على نفوسهم وحياتهم.

ففهم العقائد والدين فهماً صحيحاً وعميقاً يقرب الإنسان من جوهر الدين الواحد وليس من شكله المتعدد المصطنع والمحرف.

إن الإنسانية اليوم لا تعيش من دون أديان وعقائد، حتى الشعوب التي لا تؤمن بالأديان وتنفي الألوهية تحتاج اليوم لآلاف المفاهيم والسلوكيات الأخلاقية التي جاءت بها العقائد وجاء بها الدين واضحة شفافة.

وإذا أردنا توسيع الدائرة عمقاً وطولاً، نرى أن علم مقارنة الأديان يلقي الأضواء على عقائد الشعوب القديمة. ويدفعنا لإدراك كيفية نظرتها للألوهية والنبوات والعالم الآخر، ثم نعرف كيف كانت الأساطير تدخل عالم عقائدهم. وكيف كان السحر أحد المكونات في تلك العقائد.

ثم إن هذا العلم يعرفنا كيف جرت مسيرة التحول والتطور الدينيين لدى الشعوب، فهل بدأت موحدة أم بدأت وثنية. ثم تعرفنا كيف انتشرت الوثنية على تلك المساحات الشاسعة من تراب هذه الأرض، كيف انتقل التفكير الديني من المجرد إلى المجسم والمجسد ثم كيف عاد إلى التجريد المتقدم المرتبط بالعقائد السماوية الكبرى.

ومن خلال هذا العلم ندرك عملية التأثر والتأثير في العقائد الوضعية والوثنية الكبرى كما عند الهندوسية والبوذية، وندرك أيضاً أحادية المصدر في بعض الأديان.

وفي هذا العلم يمكن أن نرى كيف استفادت العقيدة التوراتية من العقائد الوثنية المنتشرة في ذلك المحيط الجغرافي العربي القديم، كما أشارت إلى ذلك التوراة نفسها. كيف يمكن أن نفسر وجود وصايا عشر لدى البوذية هي نفسها لدى الموسوية؟

ثم كيف نفسر التقاطع الحاصل بين القرآن الكريم والتوراة في بعض الأحداث المرتبطة ببعض الأنبياء، وهل نسلّم ببعض النظريات المفسرة للأديان المقارنة أو التي يمكن أن توضع تحت أضواء مقارنة الأديان كعلم، وهل ما ينطبق على العقائد الوضعية ينطبق على العقائد السماوية؟

إن علم مقارنة الأديان يجيب على ألف سؤال وسؤال إذا ما وُضع له منهج علمي عقلي بعيد عن الهوى والتعصب والانحياز الذي وقع فيه بعض علماء مقارنة الأديان.

التداخل بين علم مقارنة الأديان وبعض العلوم

عندما نضع بين يدينا دراسة معمقة لبعض الأديان نرى أنفسنا نُساق إلى دراسة التاريخ كعلم مستقل، فبروز بعض الظواهر الدينية تحتاج إلى معرفة تاريخها كواقعة تاريخية، وإن لم يستطع المرء معرفة التاريخ الدقيق لظهور هذه الظواهر فإن علم التاريخ نفسه يشير لنا إلى القرائن المساعدة، كالقرائن المادية والفكرية وحتى القرائن الدينية المساعدة على تحديد فترات تقريبية لبروز تلك الظواهر. فعلم مقارنة الأديان لا يحصر نفسه بعيداً عن التاريخ، بل إن التاريخ يتداخل معه بشكل كبير. وعلى الرغم من ذلك فإن بعض الباحثين الذين أرادوا أن يتبعوا منهج علم مقارنة الأديان وقعوا في مطب دون أن يشعروا. وهذا المطب هو خروجهم عن هذا العلم إلى علم تاريخ الأديان. حيث راحوا يركزون على تاريخ ظهور العقائد وتطوراتها حسب التسلسل الزمني دون الالتفات إلى مقارنة مواضيع هذه العقائد بغيرها حتى تحصل المقارنة الداخلة في دائرة علم مقارنة الأديان. ومن خلال ممارستنا لتدريس مادة مقارنة الأديان نصطدم دوماً بالمناهج المقررة وهي مناهج تدخل تاريخ الأديان وليس مقارنة الأديان.

إن دراسة تاريخ أي عقيدة أو دين بمعزل عن مقارنتها بغيرها من حيث تشريعاتها أو عقائدها ينفي عنها علاقتها بمقارنة الأديان وتظل في دائرة علم آخر تماماً هو علم تاريخ الأديان.

ولا شك أن علم مقارنة الأديان يحتاج إلى الجغرافية كاحتياجه للتاريخ، وهناك ما يسمى الجغرافية الدينية. حيث تدرس توزع الأديان والعقائد في جغرافية محددة لها بيئتها الجغرافية ولها امتداداتها وتأثيراتها. فبروز عقيدة ما في بيئة ساحلية هي غيرها في بيئة صحراوية أو جبلية، فعند مقارنة الأديان ببعضها لابد أن تراعي المكان الجغرافي والمناخ والبيئة. وبهذا لا نستطيع أن ندرس أي عقيدة ونقارنها بغيرها دون دراسة الطبيعة الجغرافية والمناخية التي انتشرت فيها.

إن هناك عقائد ظهرت في بيئة جغرافية محددة ولم تنتشر أو تتوسع جغرافياً وهناك عقائد انتشرت من بيئتها إلى بيئات أخرى بسرعة مذهلة. بينما هناك عقائد انتشرت من بيئتها إلى بيئة أخرى بشكل بطيء، وهذا البحث لابد أن يكون ذا تأثير واضح في علم مقارنة الأديان من حيث الانتشار وعدمه وأسبابه ونتائجه وما إلى ذلك.

ولعل علم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) الذي يدرس العادات والتقاليد والنتاج الأدبي الشفوي يتداخل مع علم مقارنة الأديان بشكل كبير. فإذا كان هذا العلم يحاول أن يكشف ويصنف ويحدد الصفات البشرية وتفاعلها مع البيئة ليكشف أوجه الشبه والاختلاف بين مختلف الحضارات فإن علم مقارنة الأديان يستفيد من المعطيات الدينية لذلك العلم. فالأنثروبولوجيا صب اهتمامه في كثير من الفترات على دراسة وفهم المجتمعات البدائية وهذا بطبعه يشمل الأسطورة والدين والمعتقدات والسحر، وعلم مقارنة الأديان يأخذ ما يخص من هذه المعتقدات والأديان لكي يجري بحثه.

والواقع أن العديد من علماء الأنثروبولوجيا اقتربوا من علم مقارنة الأديان وتناولوا بعض مكوناته وأجزائه دون قصد ولعل أهم هؤلاء العلماء إدوارد تايلور

الذي ظهر له كتاب (أبحاث في التاريخ المبكر للجنس البشري) عام 1865 ومن هؤلاء أيضاً مورغان، وماين وباخ أوفن[1].

ومن جانب آخر فإن الميثولوجيا وما فيها من بناء أسطوري ديني وغير ديني تدفع الباحث من علماء مقارنة الأديان إلى التعرف الجاد على الأساطير الدينية ورموزها. فليست الأساطير اليونانية أو الكنعانية أو البابلية والفرعونية بمعزل عن علاقتها الوطيدة بالدين ورموزه. وتلك على تنوعاتها تفيد إلى حد بعيد في معرفة المؤثرات الداخلية والخارجية التي ساهمت في توجهاتها وعناصر تركيبها.

وهذا العلم علم مقارنة الأديان عندما يتعرض بالدراسات المقارنة بين العقائد الدينية اليونانية وغيرها من العقائد (على سبيل المثال) لابد أن يصل إلى نتائج مفيدة إذا نظر بعين المؤرخ المقارن إلى عالم الميثولوجيا والأساطير بشكل عام. فلننظر مثلاً إلى صراع الآلهة اليونانية بين بعضها بعضاً، وما رمزية ذلك، وما الذي نصل إليه لو قارنا ذلك بصراع الآلهة في الأساطير البابلية أو الفرعونية وغيرها.

ولا يمكن أن نغفل عن استفادة علم مقارنة الأديان من علم الآثار (الأركيولوجيا) ففي سبيل تعميق فهم العقائد القديمة كان لابد من الاستفادة مما توصل إليه علماء الآثار. خاصة عند ترجمتهم للرقم والكتابات التي اكتشفوها منقوشة في الحضارات القديمة، والواقع أن معطيات علم الآثار فتح الباب واسعاً أمام الجهود العلمية المتخصصة بتاريخ الأديان وبعلم مقارنة الأديان.

فلولا علم الآثار لما أمكن التعرف على طبيعة العقائد وفهم عقلية الشعوب للذات الإلهية وللموت وما بعد الموت. وللوجود ولما وراء الوجود الخ.. هل من حاجة إنسانية لعلم مقارنة الأديان؟

ما أثر هذا العلم في الثقافة الإنسانية المعاصرة؟

وهل من أثر لهذا العلم في إيجاد تفاهم ديني بين أبناء الإنسانية؟

---

(1) محمد صفوح الأخرس، الأنثروبولوجيا.. وزارة الثقافة السورية 2001 ص 32.

قد نستطيع الإجابة الموجزة على هذه الأسئلة. ونقول نعم إن للإنسانية حاجةً إلى هذا العلم. ونعم إن لهذا العلم أثراً في الثقافة الإنسانية المعاصرة. ونعم لهذا العلم أثر في إيجاد تفاهم ديني بين أبناء البشرية.

ولكن ما حقيقة تلك الحاجة، وما هي تلك الآثار، وكيف يكون لهذا العلم أثر في إيجاد تفاهم ديني بين الشعوب؟

اليوم وبعد أن أصبح من السهل تعامل البشر مع بعضهم بعضاً من خلال العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية، يدرك أبناء البشرية أن هناك عشرات الأسئلة ما تزال تلح على عقول الجميع وهي تريد أجوبة صريحة وصادقة، إن الكثيرين اليوم يسألون: هل الإله الذي يُعبد في المسيحية هو نفسه الله الذي يعبد في الإسلام أو اليهودية؟

وقس على ذلك في مجمل القضايا العقائدية والتشريعية من عبادات ومعاملات، فمن المفترض أن تتضح معالم الأجوبة الصحيحة وتفهم من قبل الجميع حتى تتشكل لديهم معرفة دينية واعية. على ضوئها تنفتح آفاق الحوار بين الأديان وعلى ضوئها يتحدد مفهوم التوحيد والوثنية. وعلى ضوئها يتحدد موقف الإنسان من هذا كله، فإما أن يرفض الأديان جملة وتفصيلاً، وإما أن يقبل على التوحيد كما هو في الفطرة الإنسانية.

إن حاجة الإنسانية لعلم مقارنة الأديان تنبع من كون هذا الإنسان بحاجة لمزيد من المعرفة المعمقة لجميع عقائد الشعوب، حتى يدرك كيف يتعامل ويتفاعل ويحاور ويعرف أن يصب الصحيح من العقائد وأين ينبذ الباطل الذي يرفض العقل وترفض الفطرة الإنسانية.

أما أثره في الثقافة الإنسانية فإننا نرى أنه في أبسط الحالات يزيد هذه الثقافة كماً ونوعاً. فهو يعرّف الإنسان بكل ما يحيط بالأديان والعقائد من مفاهيم كمفهوم الألوهية، ومفهوم النبوة. ومفهوم الكتب المقدسة ومفهوم الموت واليوم الآخر. مفهوم الملاك والشيطان ومفاهيم الأساطير والآلهة الوثنية والتجسيد والتجسيم وكذلك أسباب الحروب الدينية التي جرت عبر التاريخ.

وإضافة إلى ذلك فإنه يعرف، الإنسان بتاريخ تدوين الكتب المتعلقة بالعقائد والأديان وما طرأ عليها من تعديل أو اختصار أو توسع.

ومع ذلك كله يضيف للثقافة الإنسانية علماً جديداً ما يزال يحتاج لمزيد من التقنين والمنهج العلمي حتى يصبح كبقية العلوم الإنسانية مثل التاريخ والفلسفة والاجتماع وعلم الإنسان أو الشعوب، وهو يمثل دعوة لكل الدارسين والباحثين المهتمين بمقارنة الأديان كي يؤصلوا هذا العلم وينشروه بشكل منهجي بين ثقافات الشعوب.